الشعر ومراميه العالية

(تابع ما قبلهُ)

﴿ رواية فوست ﴾ قال بعضهم تخمساً يحق للالمان ان يفاخروا بها كاعظم منظومة لاعظم شاعر ولدتهُ الدهور [1] ناظمها مفكر الالمان وشاعرهم الاكبر غوته (Goethe) وفي رمز الى حياة الشاعر الثائر وما كان في نفسهِ واخلاقهِ من عواطف هوجاء . اما بطلها «فوست» فعالم مفكر شديد التعطش الى ادراك مالا يدرك . يحاول بالعلم ان يطلع على اسرار الوجود فيرتدّ خائباً شديد التأوّم

ويشتد ذلك بهِ حتى يصيح فريسة لروح الشك والجحود . (ويرمز الى هذه الروح بشيطان يسميهِ مفستوفيلس او روح الارض) حتى ضاق العالم ذرعاً وكاد يتحرر تخلصاً من وجودهِ الثقيل لكن ابراس العيد الكبير توجههُ الى رشدهِ ثم يتراءى لهُ الروح المشار اليهِ ويقول لهُ ما لك وللعلم وللفلسفة كل ذلك باطل لا خير فيهِ تتمال التبعني فاخوض معك غمرات العالم تخبر ما فيهِ وتذوق مسرّاتهِ . وليس لي عليك الاّ شرط واحد وهو ان تتبعني وتجرّب كل شيء ولكن لا تطلب ان تدوم لك مسرة او لذة . فاذا طاب لك شيءٌ حتى اشتهيت دوامهُ حقّ لي ان اقبض نفسك وانهي حياتك . فيقبل فوست ذلك وبذلك يشير الشاعر الى اهواء نفسهِ وشهواتهِ وكيف كانت تملك ارادتهُ اولاً وتسيرهُ في حياتهِ متنقلاً لا يستقر على حال ولا يهدأ لهُ بال

هكذا يسير فوست بقيادة روح الارض (الشك او الجحود) فيخبط في عالم الشهوات الذاتية ويتراءى لنا هناك في مشهدين كبيرين . اولهما حفارة يجتمع فيها الخليعون من الجنسين فيمتزج بهم لكنهُ يرى منهم ما تعافهُ النفس الابية فيخرج وقد كره ذلك المكان واشمئز مما فيهِ من فساد وهوان . وثانيهما مشهد فتاة قروية بسيطة يراها لاول مرة فيهيم بها وتتطلبها نفسه فيتقدم اليها بما يشعر بهِ نحوها ثم لا يلبث ان يخدعها فتلد لهُ طفلاً . لكنهُ طوعاً لطبيعتهِ الهوجاء وقياماً بعهدهِ لشيطانهِ يهجرها فتظلم الدنيا في عينيها ويستولي عليها غم شديد يذهب برشدها فتقتل طفلها وتموت بيد القضاء . مأساة هائلة تمثل دوماً في عالم الاخبار . على ان فوست مع كل ما في نفسهِ من جنون في العواطف ويرغم

(١) German Lit. Hammer P. 394

عهده «لروح الارض» قريته يشعر باسف شديد على ما جنى . وانا نراهُ في مطلع القسم الثاني مستلقياً على الارض وقد اخذهُ الماء ورخز الشعير. وهو كذلك تحوم حولهُ ارواح الطبيعة تنشد لهُ اناشيد الحياة والسلام كأنها تقول بلسان الفيلسوف سبنوزا ما الاسف والاشفاق الاَّ شرٌّ لا يجدي . ان الطبيعة لا ذاكرة لها فاغفر لنفسك تغفر لك الثامك[1] فينام ثم يفيق وقد انتعشت نفسهُ فيلتفت الى الشمس و يقول « نحاول ان نوقد مشعال الحياة فينا فنحدث فيها حريقاً هائلاً » كلاَّ لأُدر ظهري الى الشمس. لاحوّل عيني عن القوة السرمدية التي لا تدرك . الى الطبيعة الى حياة البشر فما الحياة الحقيقية الاَّ ان يبذل المرء نفسهُ في سبيل الحياة

خطوة جديدة يحاول فوست رجل الفكر ان يخطوها في الحياة . نعم انهُ لا يزال ذلك الرجل الطموح الذي لا يعرف الوقوف عند حد . لكنهُ انقلب الآن من مفكر يطلب الاختبار الجديد في الحياة عن طريق الذات — سبيل الشهوة الخاصة — الى مفكر يطلبهُ عن سبيل العالم الاوسع — عن سبيل الغيرية . ولا يعني ذلك ان فوست ينصب لنفسهِ مثالاً اعلى يحاول الوصول اليهِ فهو لا يرمي الى غاية بل غايتهُ ان يتبع دوافعهُ الطبيعية في سبيل الحياة والواجب . ولذلك نراهُ مرَّة يختبر الحياة السياسية في ظل العرش . واخرى الحياة الفنية كداعية للفن اليوناني الذي يرمز اليهِ بـ (Helen) ويمثل لنا نشوَ الشعر باقتران الفن القديم بثقافة القرون الوسطى . واخيراً نراهُ في الخدمة العمومية كامير اقطاعي يقوم بالمشاريع المفيدة لقومهِ ، عن طريق السياسة او طريق الخدمة العامة . كخادم للفن — وخادم الوطن — او خادم للشعب . يخوض فوست ثانية بحر الحياة لكن مفستوفيلس لا يزال قرينهُ يدفعهُ الى التحول والتنقل حتى يصل اخيراً الى نهاية الاجل وكان قد بلغ المئة من عمرهِ — فلا يرى امامهُ غير القبر . هناك يقف ولسان حالهُ يقول — قد خضت الحياة وذقت منها الحلو والعلقم وهذا هو اختباري — «لا يستحق الحياة او الحرية الاَّ من يسعى ابداً في الحصول عليها » ما الحياة الاَّ سلسلة اختبارات وما الرجلُ الاَّ الذي يخوضها ويرتقي بها . هذه هي الحقيقة او الغاية العظمى التي تشفي غليل النفس وتروي ظمأها الدائم . وكأنا نسمعهُ يقول لها دوني لي انت حسبي ما اشهاك !

واذ يقول ذلك يهوي الى القبر المفتوح امامهُ . ولكن الارواح الصالحة تجيء من

(1) Santayana Philo. Poets 171

روح الجحود الذي كان يتبعهُ في حياته قاصداً الحصول على نفسهِ وتطهيرها بعنصر الخلود الى عالم الخلود

« الخلاص للجريء المجاهد » السعادة للذي لا يقف يوماً عن السعي للحصول عليها — فكرة عميقة جداً . النفس البشرية المتعطشة الى السعادة لن تدركها عن سبيل العلم ونواميس الفكر . لا ولا عن سبيل الشهوات الذاتية والاباطيل العالية . بل عن سبيل الجهاد المستمر في عالم الواجب — الجهاد هو الغاية لا الواسطة هو الذي يرقي النفس ويقويها على احتمال هذا الوجود

انما المرء يرتقي للمعالي سلماً من مرارة الاختبار

﴿ تشاؤم المعري وتشاؤم غوته ﴾ ولنقف هنا قليلاً لنقابل تشاؤم شاعرنا المعري بتشاؤم غوته . كلاهما كان ينظر الى العالم نظرهُ الى اباطيل زائلة لا تشبع النفس المفكرة . بل لعلنا نستطيع ان نقول انهما ينظران هذه النظرة الى ما وراء العالم ايضاً . فالذي يدقق في درس المعري يرى بالرغم عن ظواهر التناقض في آرائهِ روحاً ناقمة على الوجود تحاول الارتفاع الى ما فوق المعقول فترتد خائبة متألمة ويظهر المها في النقمة من الحياة والاحياء . شك في حقيقة الوجود — شك في مصير الانسان — شك في كل مظهر من مظاهر العمران . ذلك المعري فليس من الغريب ان نراهُ ينادي بوجوب القضاء على الجنس البشري — اذ الوجود في زعمهِ علة الشقاء — فلسفة تدفع المرء اليها دوافع شتى منها داخلية في طبيعة مزاجهِ ومنها خارجية ناشئة عن طبيعة احواله . ولكنها فلسفة سلبية لا تزيد تقدم العمران ولا ترقي بني الانسان

اما فلسفة غوته فرجوع عن التقاليد الدينية الى مبادئ الفلسفة الطبيعية اذ هو لا يرى السعادة في مكان خاص يصل اليهِ بعد الموت او في مشتهى ينالهُ على الارض بل في الحياة نفسها — في الجهاد المستمر . وهنا يخالف المعري الذي لا يجد من سعادة في الحياة

تعب كلها الحياة فما اعجب الا من راغب في ازدياد

بل هنا يفوق المعري كثيراً في انهُ لا يسمح لتشاؤمهِ ان يمحو السعادة من الوجود ولكنهُ يبين ناموسها بطريقة تخلب الالباب . المعري قد هدم التقليد من قلبهِ فهدم معهُ كل شيء

اراك الجهل انك في نعيم وانت اذا افكرت بسوء حال

وما سمحت لنا الدنيا بشيء سوى تعليل نفس بالمحال

وغوته فعل ذلك لكنهُ اندفع في غمار الحياة ليخط للبشر طريقاً للحياة . ذلك هدام

لا يعرف البناء - وهذا حدّاد ولكنهُ معمار مجيد

﴿ الذكرى ﴾ وهي من ابدع وابلغ ما نظم في اللغة الانكليزية. نظمها الفرد لورد تنسون وقد اوحى بها اليهِ موت صديقهِ الحميم ارثر هلم. فخاضت نفس الشاعر غمرات الحياة المرّة واخرجت لنا بعد ستة عشر عاماً من موت رفيقهِ هذه المنظومة الفريدة حسناء ترفل في اجمل الحلل واثمن الحلى

هي نشيد الخلود . تتناول الموت ومصير الانسان وغاية الوجود في اربع نشائد تمثل لنا تدرج النفس الثائرة من اعماق الحزن واليأس الى ربوع الرجاء والسلام الى الحبور الداخلي القائم على التسليم للعناية المنبعثة عن الخير الاعظم في الحياة

وليست نظريات الذكرى وصورها الفلسفية مبتكرة لم يُسبَق اليها لكنها مرآة صافية ترى فيها افكار الطبقة الراقية في عصر الشاعر — العصر الفكري الذي كانت قد انبثقت فيهِ فكرة النشوء وناموس العلوم الطبيعية فاضت على حياة البشر الروحية واحدثت تكيفاً في النظريات الدينية والعقلية . فاصبح الايمان القديم المبني على تقاليد الدين الساذجة والخوارق الطبيعية ضرباً من الاباطيل وحلّ محلهُ النظر العقلي الى القوة التي لا تدرك. نظر يولد الطمأنينة في النفس (التفاؤل) و يدعوها الى التمسك بشعاع الرجاء الاعظم . وهذا الرجاء الاعظم . هو مرمى الذكرى ومجراها الداخلي الذي يربط اجزاءها المختلفة و يجعل الثلاثة آلاف بيت منها قصيدة فلسفية خالدة . نور يراهُ حتى في اشد آلامهِ وما احسن ختامهُ لاختبارات الحزن فيهِ

ذا شعوري ما فاض بالحزن صدري ذا اعتقادي معها جرى وتولى
حبّ واقنع فذاك خير لعمري من حياة لا تعرف الحب اصلا

قلنا ان الفكرة الفلسفية في منظومة تنسون غير مبتكرة بل هي منتزعة من نظريات الطبقة الراقية في عصرهِ . ولكن من ينكر بهاء خيالاتها ورفيع مراميها ؟ انظر اليهِ في وادي الآلام — وادي الشكوك والاحزان — يسير بخطى ثقيلة في الظلام . ثم انظرهُ بين تلك الادغال والاشواك وقد رأى شعاعاً ضئيلاً من النور نور الرجاء فتنتعش نفسهُ و يسير مستنيراً بهِ . شعاعاً ضئيلاً لان نفس الشاعر لا تزال في عراك بين الشك واليقين. لا يزال السبيل وعراً امامهُ فيقوم ويسقط ولكنهُ يظل مجاهداً حتى يصل الى ربوع السلام — الى التسليم لتلك القوة المجهولة التي تدير الانام — فتنتهي المعركة الهائلة في فؤادهِ و يهدأ اضطرابهُ و يفيض حولهُ النور من كل جانب فيسير آمناً مطمئناً يسمع اناشيد

الحياة فتملأ قلبهُ سروراً . وتنهض بعزيمته نشاطاً

« التسليم للخير الاعظم » هذي هي الذكرى فلسفة التفاؤل في الوجود التي تجمّل الحياة وتجعل الانسان سعيداً في اعماله التي يعملها تحت الشمس

على ان تنسون وان بلغ طبقات الشعر العليا لا يمتاز بالفلسفة وعمق التفكر كما يمتاز بالاناقة وجمال التصوير . قالت دائرة المعارف البريطانية : «اذا استثنينا فكتور هيغو في فرنسا فليس من شاعر كان لهُ في حياتهِ من السلطان على امتهِ ما كان للفرد تنسون . ومما يمتاز بهِ سعتهُ ورونقهُ وسمو صياغتهِ . وقد تفوّق عليهِ بضعة من الشعراء في مواضيعهم الخاصة — وردزورث في تأملهِ الفكري — شلي (Shelly) في حدتهِ البليغة — كيتس (Keats) في شاعريتهِ الفياضة . لكن تنسون اقرب الى كل منهم في هذه المزايا ويفوقهم جميعاً في مزيتهِ الخاصة — الشعر البياني او الجمال الذي يخلب الالباب ويجعل شعرهُ احبَّ الاشعار الى القلوب » وقد يزاد على ذلك ان تنسون يمثل روح الامة الانكليزية في عصرهِ ولعلنا لا نخطئ اذا قابلناهُ في ذلك باحمد شوقي شاعر العربية اليوم . فان مزاياهما واحدة . الاناقة الساحرة والجمال الخلاّب ، في تمثيل الروح القومية العالية . قد تجد لشوقي كما مرَّ معنا ندّاً او سابقاً في بعض ميادين الحياة الشعرية لكنك اذا تعمقت في درس شعرهِ تجدهُ اقرب الى ما يتذوق بهِ المتذوقون . وهو بذٌّ الاكثرين في فيضانهِ ورشاقة مبانيهِ ومعانيهِ

قلنا ان لتنسون صاحب الذكرى مزية خاصة لكن هذه المزية وحدها لا تكفي لتبوّئهِ ذلك العرش العالي . فهو في الذكرى وفي غيرها من كبار منظوماتهِ يرمي الى مرامٍ عالية جدّاً ادبية واجتماعية وفلسفية . وهذه المرامي التي تحبب شعرهُ الى الخاصة وتضعهُ في مصاف الخالدين . بل هي سبيل الخلود لكل شاعر ولكل كاتب

﴿ هل هذه المرامي العالية ضرورية في الشعر ﴾ ولقائل يقول وما ضرورة المرامي العالية في الحياة الشعرية ؟ اليس الشعر فنّاً يراد بهِ تصوير العواطف الثائرة . ففي خمريات ابي نواس يتراءى لنا جمال يطربنا فيجذبنا معهُ الى حانة الخمّار . حيث دم العنقود يسيل كالنضار . ننسى لنشوتنا اننا في مقام لا يليق بالادباء بل ننسى نهتك ابي نواس واصحابهِ . ونشفق ان نراهُ معرّضاً لخطر او بلاء

وفي غزلّات ابن ابي ربيعة ما يملك نفوسنا . الى ان يرغم خلاعتهِ نحاذر عليهِ الاعداء وهو يمشي « مشية الحباب » الى خيمة فتاتهِ وقد احاط بها الحراس . حتى اذا بدت تباشير

الصباح وقد نسيا تنسيمها في غمرات الحديث خفقت قلوبنا خشية عليه في ذلك المقام. وكدنا امتطم فرحنا لا نصدّق انهُ خرج سالماً من بين الحيام

وكم آلمنا بعاد ابن زيدون عن ولّادة وفراق ابن زريق لفتاته البغدادية واشجانا حديثهما الرقيق ووددنا لو استطعنا ان نجمع بين المحبين ونفتح لهم ابواب السعادة بالرغم عن الحاسدين. ومن منا يقرأ معلقة عمرو بن كلثوم فلا تستفزهُ حماسة وعزماً وتدفعهُ الى ان يقول لا شلت يمينك ايها البطل المغوار. ولا عدمت ربيعة سيفك البتار

ومن يقرأ قصيدة ابي تمام في فتح عمورية، ولا يشعر كانما وضع على رأسهِ اكليل الابطال الظافرين او انهُ ارتفع في مركبة من نار الى البروج العليا فسمع نغمات المجد الاثيل

او قصيدة البوصيري في النبي ولا يحس بتلك النسمات الروحية التي تلطف حياة المؤمنين وتحمل نفوسهم الى اعلى عليين. او قصيدة شوقي في الحرب العثمانية اليونانية ولا يهتزّ لذلك الجلال القومي الذي يكسوهُ الشاعر من براعتهِ سحراً يخلب النفوس

في العواطف الموزونة يقولون — التي تهيج نفوسنا فتسرّها او تشجيها وما الشعر ذو المرامي العالية الاّ خروج عن الشعر وتعدّ على نظام القريض. وفي ما يقولونهُ شيءٌ من الصواب لا كله فان للشعر العالي اركاناً اهمها اثنان

﴿ ركنا الشعر ﴾ وهما الشخصية والجمال. ويراد بالاول ان يكون للشاعر وجود حيٌّ يظهر في شعره فلا يكون شعره صدًى لسمعنا انغام الآخرين وعواطفهم بكلمات يديجها ويعنى بزخرفتها. ان الفن لا يعد فنًّا ما لم يتناول صاحبهُ الوحي من الاعالي فيسكر بهِ كما يسكر الشارب وتنفخ روحهُ فيسمعنا بالكلمات نغماتها الشجية. ويصدق ذلك في الشعر الروائي كما يصدق في الشعر الوجداني والقرومي. اذ ان الشاعر المطبوع لا يستطيع ان يهبنا الاّ شيئاً واحداً وهو نفسهُ. فاذا وصف او مدح او هجا او تغزّل او رثى او فخر فانما يسكب عواطفهُ الصادقة في كلامهِ والاّ كان شعرهُ الفاظاً تافهة لا جمال فيها ولا حياة

اما الجمال فنوعان الجمال الخاص والجمال المطلق. ويطلق الجمال الخاص على مظاهر الجمال في الطبيعة من جبال واودية وسهول وبحار وحيوان ونبات — غروب الشمس عند المساء وتبسم الصباح فوق الجبال — جلال الاسود في غاباتها ودعة الخراف في مراعيها — محيا الحسناء وهيفة النسيم وخرير الماء وما الى ذلك. او على انفعالات تتولد في نفس الشاعر من بيئتهِ واحوالهِ فتظهر في نظمهِ على اشكال مختلفة تحرك القلوب وتطربها. على ان في طبيعة الوجود شيئاً غير الجمال الطبيعي الخاص. هناك الجمال المطلق

الذي هو مصدر لكل جمال — الجمال العالي الذي لا يصل اليه الا كبار اهل الخيال وهو الذي نسميه حقيقة الوجود او المثال الاعلى . ولا يمكن حصر الشعر البليغ في دائرة ضيقة من مظاهر الجمال الخاص فهو بطبيعته وثّاب الى اعالي الوجود الى المثل العليا التي يراد بها اثارة الحياة ورفع الناس الى اوج السعادة . فاذا اقتصرنا في الشعر على ما يسرّ الجوارح البدنية او يشبع الشهوات الحيوانية من مدح او ذم او غزل او حماسة او فخر او رثاء او وصف وقف شعرنا دون غاية الغايات التي هي ترقية الجنس ورفع مستوى العمران . نُقل عن الشاعر اليوناني المفكر لوكريتوس ما تعريبهُ

« حبوري ان اصل الى ينابيع الوحي الصافية وان اجمع ازهاراً جديدة واحرك لراعي اكليلاً لم تضعهُ الآلهة على راس انسان — ان اشد الحقائق واحرّ نفسي من الترّهات والاوهام اذ اتناول اسرار الحياة المظلمة فاتلوها متلألئة بانوار الجمال الشعري » وهذا الحبور السامي لا يشعر بهِ من حصر خيالهُ في السفليات من الوجود

قد تسرّ بخمر الكبير وقد يهيجك الم الحب واندفاع التحمس وما انت في ذلك الا كالشاب يرقص لمسرات الشباب الخلابة او كالطالب المبتدئ يطربهُ حلّ بعض المسائل البسيطة . فاذا اتسع نطاق فكره ونمت قوة الخيال فيهِ تطلبت نفسهُ مسرات الفكر الراقي . كذلك المرامي العالية في الشعر هي دليل الرقي الفكري في الشاعر او في قومه الذين يمثلهم ولن يراها الذين لا يعرفون من الوجود الا دائرة ضيقة يرسمها لهم التقليد . ولذا فالشعر العالي المرامي لا ينحصر في سن خاصة خلافاً لشعر العاطفي الذي قد يبلغ المصاف في زمن الفتوة والشباب

﴿ اختلاف النظر في الشعر ﴾ وهنا اصل الفرق في تحديد الشعر بين نظر ونظر . فالبعض يعدّونهُ صناعة لفظية سداها الاوزان ولحمتها الاوهام . ويقدمون من يقدمون من ارتباطها اتكالاً على تفننهم في البديع وتدققهم في الكلام . وغيرهم يعدونهُ وحياً علوياً وينظرون الى صاحبهِ نظرهم الى نبيّ او امام . اولئك يرون الشعر ملهى وملعباً للعواطف والاهواء . وهؤلاء يرونهُ افضل السبل لدفع النفس في سبيل الارتقاء

خذ الشعر الاموي مثلاً في تاريخ آدابنا وانظر اليهِ نظرة المتنقد المفكر اتلا ترى هناك شاعرية طبيعية وعواطف ثائرة . ولكن تلك الشاعرية والعواطف لا تلائم الا جوّاً خاصاً فهي ليست من الشعر الخالد لان الشعر لا ينزل الى ما تحسبهُ نقائص او مخائف . ومهما رأيت في كتب التاريخ الادبي من المبالغة في وصف جرير والاخطل

والفرزدق والراعي واضرابهم من اهل ذلك العصر فما ذلك بدليل على رقي الروح الخيالية فيهم بل على تفننهم في مقارعة الاقران وتعزيز سياسة الاحزاب

واعرض على نفسك شعرنا العصري وانظر في المجيدين من اربابهِ وما نظموهُ في مختلف الاغراض يتبين لك الخالد من الزائل والعالي من السافل ولا يكون حكمك ان كنت تحسن الانتقاد وكان ذوقك الشعري قد ارتقى بالاطلاع على شعر الامم الراقية محصوراً في مطالب لغوية بل يتعداها الى ما هو اهم — الى الخيال — الى الرؤى العالية . تلك الرؤى التي تجلو لنا اسرار الوجود فتوحينا في الانسان وفي الطبيعة ما هو حري بالاجلال والاعظام وخليق بان ينظر اليهِ ويهتدى بهِ على الدوام

﴿ الشعر والعلم ﴾ قد يكون الشاعر منشائماً او متفائلاً مؤمناً او كافراً ويرمي مع كل ذلك الى مرامٍ ترتفع بهِ عن طبقة العوام من الشعراء . مرامي فكرية رفيعة تحتاج الى نظر دقيق وشعور سامٍ وروح كبيرة . وهذه المرامي للخاصة لا يطمع بالبلوغ اليها الا كبار النفوس في كل امة . فليس الشاعر الحقيقي بمقدرتهِ على الصناعة فقط او بجدقهِ الارتجالي بالكلام الموزون — وان يكن ذلك مما يستحبُّ فيهِ — بل على سمو نفسهِ والابتكار في مواضيعهِ وخيالاتهِ. الشاعر الحقيقي لا يغني ليطرب السامع بالفاظهِ فقط بل ليحمل نفس السامع الى طبقات الوجود العليا فيسمعهُ نغمات الحياة الخالدة. فهو لذلك ينزّه نفسهُ عن سخائف القول وسفاسفهِ و يعيش كالنبي في عالم المبادئ العليا. لا يحصرهُ زمان او مكان بل يحصر الزمان والمكان فيهِ و يترفع عن كل ما يقيد شخصيتهُ ليضعها تحت ربقة التقاليد والاهواء

ولقد يقال ان الشعر خاص بعصر دون عصر وانهُ نقيض العلم يتأخر بتقدمهِ. كلا بل الشعر نور الحياة الفكرية يزداد تألقاً كلما تقدم الانسان في سبيل المعرفة ويصبح لذلك افعل في عالم العمران . نعم ان للاحوال فعلها في ظهور النوابغ ولكن النوابغ قلائل في كل عصر وقد تمرُّ احقاب دون ان يسطع بينهم كوكب وضاء

وكيف يكون تقدم البشر العلمي مدعاةً الى تأخرهم في سبيل الشعر ؟ اليس العلم بمكتشفاتهِ ومستنبطاتهِ الجديدة سبباً في توسيع الوجود للقوة المتخيلة ؟ وهل يضعف الشعر رؤيةُ الجهاد التجاري والتزاحم الحيوي — رؤية الملايين يجمعها عصاب بجدهِ ومهارتهِ — ظهور المخترعات المدهشة والمكتشفات العجيبة — تذليل العناصر الطبيعية — ثوران المبادئ الاشتراكية — تطاحن العوامل السياسية — الجهاد في سبيل الحرية — تصادم النظريات العلمية والدينية — تقدم الطب وتخفيفهُ ويلات البشرية . وما

الى ذلك من ظواهر العمران ولوازم الحضارة الحديثة . كل ذلك يفتح للعقل سبلاً جديدة يندفع فيها متأملاً طبيعة الوجود والانسان والحياة والموت والسعادة والتقدم والانحطاط . فليس العلم والشعر متناقضين او متقاطعين كخطين احدهما عمودي والآخر افقي بل هما غديران يجريان من اصل واحد . احدهما يروي الارض و يزيد خصبها فيحسن حال سكانها . والثاني يروي النفوس فينعشها و يجمل وجودها . وكلما عظم الاصل عظم هذان الغديران وازدادت فائدتهما . واذا قلنا الشعر فانما نعني المطبوع السائل من الحياة المتألق بنور الفكر . هذا هو المهذب الاكبر للانسانية ورفيق العلم في العمران

﴿ الشاعر والوحي ﴾ كان العرب يقولون الشعراء في الزمان اربعة — ولعلنا نستطيع ان نقلل هذا العدد فنقول الشاعر الحقيقي احد اثنين . شاعر يتقدم جيله فيرى مالا يرونهُ و يقودهم في سبل لم يعهدوها . واذا نجح في حياتهِ فهو النبي يصوّر للبشر صوراً جديدة من الحياة تؤثر في نفوسهم فتملأهم حماسة وتوقد فيهم عواطف تهوّن عليهم اقتحام الاهوال في سبيل ما يعدّونهُ مثلهم الاعلى . ولكنهُ كثيراً ما يساء فهمهُ فيضطهد او ينبذ و يقصى دون ان يعرفهُ عصرهُ . ثم يبعث اسمهُ فيقدم لهُ التعظيم و يتوّج بتاج الكرامة و يقبل الجميع على النور الذي حجبوهُ قبلاً بجهلهم فيستضيئون بهِ ويعظمون شأنهُ

والشاعر هو مرآة عصرهِ يتلبس روحه و يبرزها في صور شائقة ترقي نفوسهم وتحسن حياتهم . فهو قائدهم الاخلاقي ومفسر معاني الاختبار لهم . وما الشعر الاَّ اختبار اعمق من الاختبارات العادية — الحان ادق واخفى من جلبة الحياة واصواتها فلا يسمعها الاَّ الشاعر وحينئذٍ يمتزج بطبيعتهِ فيرجعها للبشر و يطربهم بها

وما الوحي الاَّ رؤية المثال الاعلى وايصال انوارهِ الى غير الرائين او سماع اصوات الطبيعة وترجيعها لغير السامعين

كان لشعرائنا الاقدمين شياطين يحملون اليهم الشعر من مناطق حياتهم البسيطة فينظمونهُ صوراً جميلة لاحوالهم العادية . ونفثات مؤثرة من عواطفهم الفطرية . على ان للشعر قيثارة في كل امة ملائك شعر او الهة يحملون الوحي من العالم الاسنى فيدفعونهُ الى النفوس الحساسة المفكرة — الى كبار الشعراء الخالدة تنعش النفوس وترقي الحياة — في هذا الوحي يتحد الشاعر والفيلسوف والنبي . ثالوث فكري هو بالحقيقة شخصية واحدة

جامعة بيروت الاميركية
انيس المقدسي
استاذ الادب العربي